المنهاج الصوفي في الدعوة
- الشيخ عبد القادر الجيلاني نموذجا -

الدكتور: بوخضرة بن معمر
جامعة تلمسان

مقدمة:

لكل أمة منهجها الخاص في الإصلاح، يتناسب مع بنائها الاجتماعي والحضاري والظرف الذي تعيش فيه. فمنهاج الإصلاح في الرؤية الإسلامية يختلف عن نظائره في كثير من الأنساق الفكرية والفلسفات والحضارات التي انتشرت وسادت خارج إطار الإسلام.

فالإصلاح الإسلامي حسب تعبير الأستاذ «محمد عمارة» ليس تغييرا جزئيا ولا سطحيا وإنما هو تغيير شامل وعميق، يبدأ من الجذور، ويمتد إلى سائر مناحي الحياة. بل إنه لا يقف عند ميادين الحياة الدّنيا وإنما يجعل من صلاح الدنيا السبيل إلى الصلاح والسعادة فيما وراء هذه الحياة الدنيا إلى هذا المنهاج الإسلامي الذي يبدأ بالعقيدة التي تغير صياغة الإنسان صياغة إسلامية، ينطلق بعد ذلك هذا الإنسان الصالح لإصلاح سائر

ميادين الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وهو نفس المنهاج الذي سار عليه مصلحون، أوائل منهم الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي عرف كيف يختبر مجتمعه ويشخص أمراضه وما أصابه من الوهن والضعف فسنّ لنفسه منهاجا قويما جعل الناس يقبلون عليه بإعجاب وقد ذكر هذا التأثير الشيخ نفسهُ فقال «وكان يجلس عنده رجلان وثلاثة ثم تسامع الناس به وازدحم عليّ الخلق حتى صار يحضر مجلس نحو من سبعين ألف.»1

لذلك حاولت في هذه المرحلة تقديم هذا الجانب المفيد من حياة شيخنا «عبد القادر الجيلاني» بعدما شوه كثير من من أتباع شيخهم وابتدعوا كثيرا من الخرفات والبدع. وذهبوا بالتصوف مذهب الوثنيين مع العلم أن التصوف لا يعلوا أن يكون منهاجا تربويا دينيا يهدف إلى تطهير النفس وإخلاص العبادة. ولهذا فإن ما لحق التصوف اليوم من مظاهر العلو والابتداع لا يمثل في حقيقة الأمر إلا أصحابه الذين أساؤوا فهم الشيوخ الأوائل من المنظومة فالحركة الصوفية كانت تتدخل لتصحيح أوضاع وتعالج وضعية تاريخية وفق ما تقتضيه

الشريعة والحقيقة وهذا ما ينطبق على المنهاج الذي خطّهُ عبد القادر الجيلاني.

الطريقة القادرية: بقول الكيلاني:

الطريقة هي السلوك الذي يوصل إلى إرضاء الله سبحانه وتعالى.

وقال الجرجاني في كتابه التعريفات: «هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات» وكما تعددت المذاهب الفقهية تعددت طرق التربية حسب اجتهاد أعلام السلوك العاملين المخلصين والأصل واحد عند الجميع وهو الكتاب والسنة.

وإذا كان الفقه هو جسم الشريعة فالطريقة روحها، الفقه يرضى من المصلي أن يقوم باركان الصلاة من قيام وركوع وسجود وقعود وقراءة ولكن الطريقة لا ترضى منه إلا بالخضوع وأن يعتبر نفسه واقفا بين يدي ملك الملوك وجبار السموات الأرض وأن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر والأمر قياسي على جميع أنواع العبادات الأخرى من صوم وزكاة وحج.

لقد نشأ الفقه على أيدي أئمة مخلصين استنبطوه وصنفوه وبنوه للناس وكانوا في الوقت نفسه مرشدين وسالكين وعندما انصرف ما بعدهم من الفقهاء إلى الفقه بخاصة العبادة والمعاملات وحصروا أنفسهم في نطاقها وتركوا ماسواها أخذ السالكون والمرشدون يستقلون ويظهرون للناس المنهاج القويم من الأخلاق الذي كان عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) ليعودوا إليه بعد أن اختل ميدان السلوك والأخلاق اختلالا كبيرًا ...»وهكذا أظهر علم السلوك، الذي أطلق عليه علم التصوف»2

ويجدر بنا أن نذكر في هذا المجال بأنه كما ظهر الشطط والانحراف في الفقه والاعتقاد فظهرت فرق المعتزلة والمرجئة والجربة والخوارج، وغيرها من، وكذلك ظهر الشطط والانحراف في التصوف خاصة بعد ما تسربت الثقافات العربية كالهندية والفارسية واليونانية،

منهاجه:

لا يمكن أن نفهم منهاجه التربوي إلا إذا عرفنا طبيعة العصر الذي عاش فيه، فمن القرن الخامس هجري (5هـ)

الحادي عشر ميلادي (11م) تباعد الزمن عن عصر النبوة «فانغمست النفوس في الغفلة واللّهو وفسدت الأخلاق، وانتشرت أماكن الفسق والفجور»3 وقست القلوب، فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة»4

وكان من نتائج ذلك أن انتشرت مختلف الأمراض الاجتماعية مثل كثرة الوشايات واشتد الاستبداد والتعسف والظلم وكثرة الدعوات السياسية وتعددت الحروب الطاحنة الداخلية فنكب الناس واجتاحتهم المحن والمصائب وكاد التصوف الإسلامي ينحرف عن مساره المعتدل بما شاع من دعاوي الوصول إلى الحقيقة التي تسقط عندها الفروض والتكاليف الشرعية، وما تبع ذلك من شطحات ونزعات ونظريات فلسفية كوحدة الرجوع والاتحاد والحلول إضافة إلى ذلك أن جهل العديد من مشايخ الصوفية قد أدّى إلى انتشار الجهلة والدّهاء الذين أشاعوا الخرافات والأباطيل ونشروا الخزعبلات والدّجل فشوهوا صورة الإسلام وحقيقة التصوف ونزلوا بالعقل إلى مستويات متدنية.

أمتم هذا الواقع الذي أصبح ميئوسًا منه أصبحت الأمة الإسلامية بحاجة إلى داعية منطقي صادق أمين لا يخشى في الله

لومة زاهد في كل ما حرض عليه أهل الدنيا، مرشدًا عارفا، رؤوفا بالمستضعفين ناصرًا للمظلومين ملبيا حاجة المحتاجين شديدًا على الظالمين ناصحًا وواعضًا للمنحرفين والعاصين.

لذلك فقد قام في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية ّالدعاة، الربانيون المحمديون يدعون الناس إلى العودة إلى لإيمان الصحيح والتخلص من سلطان الهوى والشهوات وترك عبادة البشر إلى عبادة ربّ البشر وخالقهم.»5

لقد كان الشيخ عبد القادر الجيلاني صاحب رسالة كبيرة ودعوة سامية فقد رأى ما أصيب به المسلمون من تشتت وافتراق وتناحر ونا استولى عليه من حبّ الدنيا والتقاتل على الملك والجاه والسلطان وانصراف الناس إلى المادة والمناصب والولايات والتفافهم حول الملوك والأمراء وتقديسهم لهم «عاش الشيخ متصلاً قبل ذلك بشعوره والأمة بعيدًا عن كل ذلك نقلته وجسمه ونصرة بكل همته وقوته وإخلاصه إلى الوعظ والإرشاد والدعوة والتربية وإصلاح نفوس المسلمين وتزكيتها ومحاربة النفاق والشغف بالدنيا والتكالب على

حطامها ومناصبها إثارة للشعور الايماني وتقوية عقيدة الآخرة والتجافي عن دارِ الغرورِ»6

الدعوة إلى العمل:

كان يدعو مريد به إلى العمل ويؤكد أن الطريق ليس كلاما أو مهادنة للحياة وإنّ الله يحث عبادهُ العاملين» اعبدوا الله عزّ وجلّ واستعينوا على عبادته بكسب الحلال، إذن الله عزّ وجلّ يحبّ عبدا مؤمنًا مطيعًا آكلاً من حلاله ويحبّ من يأكل ويعمل، ويبغض من يأكل ولا يعمل، يحب من يأكل من كسبه ويبغض من يأكل بنفاقه وتوكله على الخلق» ولهذا فقد تميزت الطريقة الجيلانية بكثرة انتساب جماعات الحوفيين إليها، فكثرت بين صفوف الجيلانيين التّجار والنجارون والحدادون والبناؤون ومن إليهم.»7

وبدأت كل جماعة من هؤلاء تكون وحدة خاصة بها داخل الجماعة وربّما لم يكن هذا من عمل «عبد القادر الجيلاني» وإنما نتيجة لاتجاه في العمل ومهارته في التنظيم وإحساسه الواعي بحاجة جماهير الأمة إلى قادةٍ ومرشدين، فوجّه أصحاب هذا التوجيه أو قال أنّه وضعهم على أول الطريق،

وساروا هم في نفس الاتجاه وتطوّرت الحركة من نفسها ذلك التطوّر الذي جعل للصّوفية وطرقها دورًا ’يجابيًا فعّالا في حياة النّاس وهذا في الأغلب هو الذي جعل الطريقة الجلانية أوسع الطرق الصوفية انتشارًا في العالم الإسلامي.

المهمّ أن تفكير «عبد القادر الجيلاني» هو الذي أوجده الفعل بالفعل الصوفية العاملة ذات الدور الحقيقي في حياة الجماعة فأصبح الشيخ الصوفي عمادًا من أعمدة المجتمع بنا له من جهد وعمل في تنظيم مريديه وخدمتهم وخدمة المجتمع كله في هذا السبيل.

نصرة الحق:

كان «سيدي عبد القادر الجيلاني» جريئًا في الحق «لما ولّى المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين القاضي ابن مزاعم الظالم قال على المنبر: «وليت على المسلمين أظلم الظالمين. ما جوابك عند ربّ العالمين أرحم الراحمين، فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضي المذكور لوقته»8

ومما يدل على شجاعة وبرئته في الحق قوله في كتاب: الفتح الربّاني: « إني أقول لكم الحق ولا أخاف منكم ولا أرجوكم، أنتم

أهل الأرض عندي كالبق والذرّ، لأني أرى العزّ والنفع من الله عزّ وجلّ لا منكم المماليك والملوك عندي سواهْ».9

وقال مخاطبا تلك الفئة من العلماء الذين يداهنون السلاطين وينافقون: «أين انتم وهم؟ يقصد بهم العلماء الذين لا يخشون إلا الله تعالى، يا خونة في العلم والعمل، يا أعداء الله ورسول يا قاطعي عباد الله عزّ وجلّ، أنتم في ظلمٍ ظاهر ونفاقٍ إلى متى؟ يا علماء يا زهاد كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها لكم، وأنتم وأكثر الملوك في هذا الزمن ظلمة وخونة في عبادة الله عزّ وجلّ»10

الدعوة إلى اتباع السنة والشرع:

كان يدعو أتباعه إلى اتباع السنة والشرع يقول لهم في قو : «إتباع الشرع موجب لسعادة الدّارين، فاحذر الخروج من دائرته الله ... وأقرب الطرق إلى الله تعالى، لزوم قانون العبودية والاستمساك بأصول الشريعة وفروعها والاستقامة على الجادّة»11

هذه الصفات كانت طريقته في الوعظ والإصلاح فقد كان «بحق متسننا عابدًا واعظا قامعا لنفسه ناصحًا لغيره صادقا في حاله

مُبغضا للبدعة وأصحابها»12. وهذا يدل على أن سلوك الشيخ عبد القادر وقوله يدلاّن على أن صاحب الطريقة القادرية كان العابد الزّاهد، العامل بكتاب الله وسنة رسوله، إنّ الرجل الذي دعن إلى إتباع الشرع وسنة الرسول الكريم في قضاياه المتعددة يجعلنا نشك فيما نسب إليه من افتراءات وأقوال كاذبة. فلقد سئل عارف الله عن الذي يسمح في هذه الأزمنة وينتقل على لسان الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سرّه من الشطوحات والكلمات المشوبة بالعجب والذغون، والتجاوز فغير ذلك من الألفاظ التي يردها الشرع مثل قوله «للميت قم فيقوم.» فقام الشيخ منزعج وقال :« جلست مع الشيخ عبد القادر وأوكلت معه وقمت معه وسرت معه وحضرت معه، فو الله ما رأيته تحرّك بحركة ولا سمعته تكلم بكلمة تخالف الشرع الشريف أبدًا الشيخ عبد القادر رحا عارف، عابد، زاهد، خائف، خاشع ذو مجاهدة، وأوراد وأفكار، وذوق وكشوفات وكرامات وأحوال صالحة وحرمة في قلوب أهل الدين »

الدعوة إلى اتباع السنة:

وكان الشيخ عدي بن مسافر رضي لله عنه يقول «كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه طريقته، الذبول تحت مجاري الأقدار

بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر وانسلاخه من صفاة النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضر والقرب والبعد.»13

بل أنه كان يشترط على المبتدئ في الطريقة الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس فيكون على عقيدة السلف الصالح، أهل السنة القديمة، سنة الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والأولياء والصدّيقين، فعليه بالتمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما في أمرًا ونهيًا، أصلاً وفرعًا فيجعلها جناحيه يطير بهما في الطريق الواصل إلى الله عزّ وجلّ ثم الصدق والاجتهاد، حتى يجد الهداية والإرشاد»14.

وعندما رأى بعض الطرق الصوفية وخروجها من ربقة الدين حاربها وفند زيغها وضلالها وأخضع الطريقة للشريعة لكي لا تضل ولا تزيغ بل قدم الشريعة على الحقيقة فهي الأصل وهي الحكم الفصل، وكثيرا ما كان يقول: « عليكم الاتباع بلى ابتداع تفقصتم اعتزل طه إلى الحق لجناحي الكتاب والسنة، حقيقة لا تشهد بها الشريعة فهي زندقة، وبذلك أعاد ربط السلوك.

التعليم:كان يقدم دروس في شتى العلوم وبشكل مكثف إذ يقول له عبد المطلب: «كان والدي يتكلم في الأسبوع وثلاث

مرات في المدرسة بكرة الجمعة، وعشية الثلاثاء، وبالرباط بكرة الأحد، وكان يحضره العلماء، والفقهاء والمشايخ وغيرهم، ومدّة كلامه على الناس أربعون سنة، أولها سنة 521 وآخرها 561 هجرية وحدة تفسيره للتدريس والفتوى ثلاث وثلاثون سنة أولها سنة 528 هـ وآخرها 561 هجرية».

إن تواضع الشيخ وإدراكه للرسالة الملقاة على عاتقه هو الذي جعله يتجه إلى التعليم كمنهاج لإصلاح العباد، فقد ورث إدارة المدرسة التي أسسها شيخه أب سعيد المخرمي، وعمل على توسعها إلى أن صارت مركزا للعمل والفتوى والوعظ بل أنه أضاف إلى ذلك بناء «رباط»إلى جانب المدرسة ليكون سكنا للطلبة الوافدين وقد وصف «ابن قدامى المقدسي» طريقة «عبد القادر الجيلاني»في التعلم وأثره في طلبه فقال «دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة (561) فإذا بالشيخ عبد القادر ممّن انتهت إليه الرئاسة بها علما وعملا وحالاً واستفتاءا، وكان يكفي طالب العلم من قصد غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم، والعبر على المشتغلين وسعة القدر، وكان ملئ العين، وجمع الله فيه أوصاف جميلة وأحوالا عزيزة، وما رأيت بعدهُ مثلهُ»15

الإعداد التربوي:

كان منهجه التربوي يوم على قاعدة مجاهدة النفس بالإتباع للمعصوم صلى الله عليه وسلم، حتى يتولى عندها إرادة جادة حازمة تعمل وفق قاعدة التحلي والتجلي.» وصولا إلى هدف «الصفاء بلا كدر» وكان يركز في التربية على أمور علمية لها أثار أخلاقية واجتماعية من ذلك:

1- الابتعاد عن الكذب قولاً وقبولا ونشرًا: وهذا بورث العبر، صفاء العلم، واستقامة الحال، والكرامة عند الخالق والخلق.

2- الوفاء بالوعود، والأولى الابتعاد عنها أصلا وهذا ما يجنب العبد الحرج والكذب والحلف، ويحببه للعباد الصادقين.

3- الاجتناب الدعاء على أحد من الخلق، وتجنب الظلم قولا وفعلاً وهذا يرفع مقام العبد عند ربه وتكون مكانته عند الناس كريمة.

4- الابتعاد عن وصف أحد من أهل القبلة بكفرٍ أو شرك أو نفاق، وهذا يجنب المؤمن إدعاء العلم، والوقوع في

غضب الرب عزّ وجلّ وبورثه رحمة الخلق وقدرة على التعامل الكريم مع المخالفين.

5- غض النظر عن المعاصي، وهذا يجعل القلب صافيًا ويقيه كثيرًا من الخواطر الفاسدة، ويساعده على الاستقامة.

6- الاستغناء على الخلق وعدم الاعتماد عليهم في حاجة مهما صغرت وهذا يحمل الداعية في أعينهم عزيزا ويهبه شجاعة على الأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ويخلص من الرياء والتصنع للمخلوفين.

7- التواضع: ويعني به الشفقة على الخلق والتوكل والحياء من الخالق عزّ وجلّ.

الخاتمة:

ارتبطت القادرية في ظهورها بظرفية دينية واجتماعية وسياسية جدّ دقيقة فكانت دعوة الشيخ عبد القادر الجيلاني استجابة منطقية لتحديات العصر بهدف نصرة الدين وتجديد معالمه السنية ومواجهة دعوات الانحراف والابتداع والتطرف، مثله في ذلك مثل الشيخ بن حامد الغزالي حجّة الإسلام، فكانت طريقته الصوفية تدعيمًا للتصوف السنّي المستمد من الكتاب والسنّة وسيرة السلف الصالح.

تميزت القادرية بالبساطة والوضوح في رؤياها المذهبية وتصوراتها الصوفية كأول طريقة منظمة ومؤطرة للحياة الصوفية في محاولة لتوحيد ثبات عالم العلاج، وعلى هذا المنهج سار شيوخ التصوف اللاحقين أمثال الشاذلي. فاعتبر القادرية كأمل لكل الطرق الصوفية الإسلامية السنية.

تميز تصوف الشيخ عبد القادر لطابعه الزهدي والتقشفي ولكن أيضا بطابعه العلمي والعملي، فيعدّ رحلة التجرد والخلوة والحرقة وإخلاء القلب واليد والاقتبال على الله قلبا وقالبا. وجاءت مرحلة الاضطلاع لمسؤوليات الدين

والدنيا فكانت حياته كلها وعظا وإرشادًا ودعوة إلى إخلاص العبودية، أمرً بالمعروف ناها عن المنكر وقد أثرت سيرته في أتباعه الذين تميزت دعوتهم بالتسامح واللين واعتماد الوسائل النبيلة لتحقيق مقاصدهم.

كان التصوف ملاذا للانفلات من شهوات الدنيا وزينتها وأصبح اليوم ملاذا للبحث عن الدنيا، إنها من المفارقات العجيبة فما أحوجنا اليوم بأن يفيد التصوف كما عرفه أصحابهُ الأوائل خصوصا التعلم والإقناع بالتي هي أحسن، والابتعاد عن حياة الانزواء والرهبنة مع الإقبال على تقديم مختلف أنواع المعونة والمساعدة.

لكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن القادرية اليوم لم تسلم بدورها من تأثيرات محلية وظرفية عكرت إلى حد بعيد أجواء ومنابع الطريقة السنية الصافية سواء تعلق الأمر بدعوات تجعله فوق البشر أو دعوات بدعية غوغائية تغرف الطريقة في ممارسات وطقوس مشينة تبتعد كلية عن الدين والوزع وتنغمس في الانحراف والبدع.

فإن كان التصوف ملاذ للانفلات من الشهوات الدنيا وزينتها، فلقد أصبح التصوف اليوم ملاذ للبحث عن زينة

الحياة الدنيا إنها من المفارقات العجيبة التي تدعونا إلى إعادة التأمل والبحث لإيجاد سبل كفيلة بأن تعيد للتصوف دوره الريادي في الحياة الاجتماعية كما عرفه أصحابه الأوائل ...

الهوامش:

1 محمد عمارة: المنهاج الإسلامي في الإصلاح «مجلة الأزهر» يصدرها مجمع البحوث الإسلامية ج**5** السنة **1985**، أبريل **2012**، ص **2**.

[2] للمزيد انظر ترجمة للشيخ في طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، ج**1**، ص **291** وما بعدها.

3 الجرجاني: التعريفات، ص **183**.

[4] عبد الباقي مفتاح: أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته **16**□**2008**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر ، ص **116**، **117**.

[5] محمد أحمد درينقة: الطريقة القادرية وأعلامها ط**1**، **2009**، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس لبنان، ص **05**.

[6] سورة الابقرة، الآية **74**.

[7] أبو الحن الندوي: رباني لا رهباني، د.ط بيروت، **1983**، ص **28**.

[8] أبو الحسن الندوي، الإمام عبد القادر الجيلاني.

[9]حسن مؤنس: الطرق الصوفية، وأثرها في نشر الإسلام ى، ط**2**، **2008**، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. ص**16**، ص**17**.

[10] محمد الناخفي الكنبلي: قلائد الجواهر في مناقل الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص**08**.

[11]عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني ، المجلس **51**.

[12]المرجع نفسه، المجلس **51**.

[13] محمد أبو الغيض، بداية الطريق إلى منهج التحقيق، ص **48**.

[14] يراجع ، الطرق الصوفية في مصر ط**5**، **1992**، دار المعارف القاهرة.

15يمكن الرجوع إلى الكتاب.

طبقات الشعراني: ج**1**، ص **110**.

عامل النجاربالطرق الصوفية في مصر ص **77**.

عامر النجار: الطرق الصوفية بمصر: ط**5**، **1992**، دار المعارف، القاهرة، ص **74.**